غبراء. ومنها الطفاوة وهي دائرة للشمس بمنزلة الهالة للقمر ويدعوها العرب ايضاً اياةً تكتنف الشمس اذا مرّت اشعّتها في دقائق سحابيّة متبلورة توجد في طبقات السماء العليا وربّما ظهر دائرتان معاً قطر الكبرى الخارجيّة ٤٦° والصغرى ٢٣° وهذه الطفاوة تكون ملوّنة بالوان الطيف يكون الاحمر في الداخل والبنفسجيّ في الخارج

وعند حدوث هذه الطفاوة حول الشمس تحصل آثار اخرى جوّيّة بهيّة المنظر كتعدُّد الدارات على اشكال هندسيّة غاية في الجمال. وربّما ظهرت شموس كاذبة على قطر بعض هذه الدارات خارجاً عنها. لكنّ هذه الحوادث الجوّيّة قد خصّ الله بها بعض البلاد القريبة من القطبين لا نرى في اقطارنا الشرقيّة منها شيئاً فاكتفينا بذكرها ليعلم قرّاؤنا ما ابدعهُ الله في ارضنا من عجائب المخلوقات. وغرائب المصنوعات. فيزيد شكرهم لبارئ الكائنات سبحانهُ وتعالى تبارك اسمهُ في اقاصي الارض واعالي السماوات

تناقض الدين والعلم

بحث فلسفي للاب لويس شيخو اليسوعي

قال الفيلسوف باكون: قلّة العلم تُبعد من الله وكثرتهُ تقرّب اليه

ما كنّا لنظنّ انّ صاحب الهلال يجول في ميدان ليس هو من فرسانهِ. فانّهُ سامحهُ الله كان قرّف في مجلتهِ (ص ٦٢١) مرّةً اولى زعماء الدين بانهم لا يفرقون بين الدين والعلم وذلك لأنهم أنفوا من المصادقة على قولهِ الباطل في ناموس الارتقاء وما شابه ذلك من الآراء الواهنة التي دافع عنها باسم العلم والعلمُ منها مناط الثريا

فاجبنا كاتب الهلال في المشرق (٣: ١٩٠) انّهُ على ضلال مبين وانّ زعماء الدين اعرف من غيرهم بقدر العلم وخواصّهِ التي تفرق بينهُ وبين الدين ولكنّنا انكرنا عليهِ الفصل بينهما لأنهما شعبتا أصل واحد وسليلا ابوّةٍ هو الله عزّ وجلّ ربّ العلم وربّ الدين معاً فلا يمكن وجود تضادّ بينهما البتة. وختمنا ذلك بقولنا « ان كلّ دين ينافي حقيقةً واحدةً علمية تناقض تعاليمهُ الاصلية هو دينٌ فاسد لا يجوز للانسان ان يتّبعهُ » وكان بوسعنا ان نقلب هذه القضيّة فنقول « انّ كل علم يناقض تعاليم الدين المستقيم

(وليس من شأننا هنا البحث عن هذا الدين) هو علم باطل لا يمكن الاستناد اليهِ. وكلا المبدأان عين الصواب كما سترى

غير انَّ الهلال ابى الَّا المكابرة فانتهز ليرمينا من وراء قترةٍ فرصةَ ردّهِ على احد « ادباء فرشوط » (راجع الهلال ص ٢٢٩) حاول ان ينفي بعض أقوال الهلال مستندًا الى آيات اوردها من الكتاب المقدَّس. وليس من شأننا هنـا ان نحكم بصحة مزعم الاديب المذكور او بفسادهِ (١ وانَّما نكتفي بتفنيد ما وجَّههُ الهلال الى مجلَّتنا من الملام حيث قال:

« وكانَّ حضرة المعترض يرى وجوب مطابقة العلم والدين فاكان منهُ مخالفًا لآيات الكتاب نُبذ جهرياً. ولكن هناك جماعة آخرين يرون وجوب مطابقة الدين للعلم ويقولون ان « كلّ دين بناني حقيقةً واحدة علميَّة تناقض تعاليمهُ الاصليـة هو دين فاسد لا يجوز للانسان ان يتَّبعهُ » والحال ان في كل دين من الاديان الالهيَّة (اليهودية والنصرانيـة والاسلام) تعاليم عديدة تناقض الحقائق الطبيعيَّة على خط مستقيم يكفينا منها المعجزات التي لا يخلو منها دين. فاهيك عن كثير من الاعتقادات المشهورة عند بعض الطوائف اليوم كالاستحالة والتثليث ونحوهما. فهذه كلهـا تخالف الحقائق العلميَّة فهل تعدُّ تلك الاديان فاسدة ؟ واذا جاز لنا ذلك هان علينا القول بفساد اكثر الاديان المشهورة وهو ضلال مبين. واذا اتبعنا قول حضرة الكاتب بوجوب مطابقة العلم للدين نقضنا كثيرًا من الحقائق العلمية الثابتة وهو جهل صريح. فالاولى بنا اعتبار كل من العلم والدين مستقلًّا بنفسهِ فنحتفظ بالواحد على والدنيا وبالآخر على الآخرة. وفوق كل ذي علم عليم »

هذا ما وجدهُ صاحب الهلال في علمهِ السامي ليزيّف قولنا في مطابقة العلم للدين ولكن يسوؤنا ان نقول لجنابهِ انهُ شطَّ في زعمهِ ايَّ شطط ولعلَّهُ استنار بضوء هلالهِ الضعيف فغاط ولو عقل لرجع الى نور شمس الايمان الساطع او شخص بصرهُ الى نور عقلهِ اللامع فاستدلَّ بهما على القول الصواب والحكم القاطع

والحقّ يُقال انَّ النصوص الدينيَّة والبراهين العقليَّة والشواهد التاريخيَّة كلها لسان واحد على ائتلاف الدين والعلم وانهُ لا يمكن ان يوجد بينهما تناقض البتَّة

امَّا النصوص الدينيَّة فاكثر من ان تُعدّ فترى الاسفار المنزلة تارةً تحرّض على احراز

---

١) ان الكتب الالهيَّة قد ارحى الله بها الى اوليائهِ القديسين وانبيائهِ الصالحين ليرشد بها البشر الى جادَّة الخلاص ويتكلَّم بهم عن سبيـل الضلال وليست هي كتب علميَّة لتوقف الناس على الحقائق الطبيعية. ولكن اذا جاء فيها آية صريحة تثبت شيئًا من العلوم لا بدَّ من القول بصحَّة الآية ولا يمكن العلم الصحيح ان يبطل ما ورد في هذه النصوص الدينية

العلوم الدينية والطبيعية كقول الحكيم (امثال ١١ : ٩) : « بالعلم يتخلّص الصدّيقون ». وكقوله (١٩ : ٢) : « النفس من دون علم غير صالحة ». وتارةً تبكّت الجاهل على جهله وتفضّله الغنى والملذات على العلم (راجع ارميا ١٠ : ١٤ امثال ١٧ : ١٦). وحينًا تشهد بان الله يعلم بكل علم ويُوزّع العلم على من يحبهُ (ابن سيراخ ٣٨ : ٦ و ٤١ : ١٩). وطوراً تحمل دعاة الدين على العلم « لانّ شفتي الكاهن تحفظان العلم » (ملاخي ٢ : ٧) وتنكر عليهم الجهل كقول الرب على لسان هوشع (٤ : ٦) : « رذلتَ المعرفة فانا ارذلك فلا تكون لي كاهنًا ». وآونةً تبيّن رضى الله عن شعبهِ اذ « يعطيهم رعاةً على وفق قلبهِ يرعونهم بعلم وعقل » (ارميا ٣ : ١٥). وربّما صرّحت هذه النصوص باتفاق العلم والدين وبأنّ العلم بلا دين فاسد كقول صاحب الحكمة (١٣ : ١ و ٩) عن بعض الحكماء الذين جهلوا الدين : « ان جميع الذين لم يعرفوا الله هم حمقى . . . لانهم ان كانوا قد بلغوا من العلم أن استطاعوا إدراك كنه الدهر فكيف لم يكونوا اسرع إدراكاً لربّ الدهر ». وكقول الرسول (١ كور ١٣ : ٢) انهُ لو حصل على كلّ علم دون المحبّة (واليها مرجع الدين) ليس هو بشيء » وكقول ابن سيراخ (٣٩ : ١ الخ) ان الذي يتأمل في شريعة العلي يبحث عن حكمة جميع المتقدّمين بل يجول الارض ليجمع اصناف العلوم

فنطلب من صاحب الهلال ان كان العلم والدين يتناقضان كما زعم فكيف يستطيع الكتاب الكريم ان يحرّض الناس على اقتنائهما معًا وان يثبت بنصوص عديدة ان لا علم صحيح بلا دين وان الدين يحتاج الى العلم في امور كثيرة . أفيمكنهُ تعالى ان يحمل على إحراز العلوم اذا كانت هذه العلوم تُبطل ما يوحي الينا بهِ من الاسرار وعقائد الدين . فليتأمّل العاقل الى اي شطط بلغ صاحب الهلال

وليست الاسفار المنزلة وحدها تقرّر بصراحة انّ الدين والعلم متّفقان متعاضدان كاخوين توأمين بل يشهد على ذلك ايضًا العقل الصائب فاذا استفتيناهُ افتانا بمطابقة الدين للعلم . وهاك البرهان على قولنا نلخّصهُ عن اعظم الفلاسفة : « لا يُنكر انّ في العزّة الالهيّة لا يوجد ادنى تضادّ او اختلاف لانهُ تعالى هو الحقّ بالذات ولو كان فيهِ نقص لبطل كيانهُ . والحال لو اوحى الله بحقيقة دينيّة تنافي بعض الحقائق العلميّة الراهنة لوجد فيهِ سبحانهُ وتعالى اختلاف او تضادّ لانّ العقل البشري والوحي يصدران

كلاهما منهُ عزَّ وجلَّ وما هما سوى شعاعين من شمس واحدة كلها نور دون ظلام البتَّة او جدولين يخرجان من نبع واحد لا يكدّره قذًى. فاذا علمنا اذن الدين قضيَّة من القضايا الالهيَّة تنافي حقيقة علميَّة لا بُدَّ من احد قولين او ان هـذا الدين هو باطل فيجب على الانسان ان ينبذهُ ويطلب غيرهُ او انَّ ما نُسب الى الدين ليس بصادق وانَّما هو محض اختلاق ووَهم قال القديس توما اللاهوتي شمس المدارس (في شرحهِ على مقالة بريثيوس في الثالوث س٢) « ان وُجد في أقوال الفلاسفة شيء ينفي تعليم الايمان القويم فذلك ليس من الفلسفة بل من السفسطة ويمكن حلُّهُ بالمبادئ الفلسفة الراهنة. فثبت اذًا انَّ العقل السليم يُفتي بوجوب الاتفاق بين العلم والدين

هذا ونزيد على البرهانين السابقين شواهد التاريخ والاختبار اليومي فنقول:

ان كان الدين والعلم في تناقض لوجب ان ينقص الدين بنموّ العلم كما تضمحل الظلمة عند ظهور النور. والامر على خلاف ذلك فانَّا اذا تصفَّحنا التاريخ وجدنا ان كبار العلماء وائمَّة الحكماء كانوا أرسخ قدمًا في الدين. ولا حاجة لي الى ايراد اسماء مشاهير معلّمي الكنيسة الذين نبغوا في كلّ الفنون والعلوم الدينيَّة والدنيويَّة معًا كالقديس اوغسطينوس والقديس ايرونيموس واوريجانس والقديس توما اللاهوتي وغيرهم كثيرين. وحسبي ذكر المكتشفين العظام وزعماء العلوم الطبيعيَّة الثابتة في أيامنا. فانَّك اذا وقفت على تراجم حياتهم وجدتهم معتصمين بحبال الدين لا يخونهُ حقَّهُ ذرَّةً مثل كپلر وديكرت ونيوتن وغليلاي ولبنيس ولينّاي (Linné) وكوڤيار (Cuvier) وامپار (Ampère) وكوشي (Cauchy) والكيميويّان درماس وشڤرول (Chevreul) وپستور ولونرمان (Fr. Lenormant) وألوف مثلهم. بل ترى انَّ عددًا غفيرًا من هؤلاء العلماء كانوا من الكهنة مثل روجار باكون وكوپرنيك وكڤشر وماريوت وماي ومكي. فكيف امكن علماء بلغوا هذه الدرجة من العلم ان يحافظوا على مبادئ الدين لو وجدوا فيها ما يناقض عقلهم. وقد قال احدهم بخلاف ذلك وهو الفيلسوف باكون : « انَّ قلَّة العلم تبعد من الله والدين وانَّ الترقي في العلوم يقرّب اليهِ تعالى ويزيد الانسان تديُّنًا ». وقد رأينا في عصرنا كثيرين من جهابذة العلم كانوا في حياتهم لم يبالوا بالدين فلمَّا حانت ساعة وفاتهم ارعووا عن غيّهم وتابوا متأسفين على ضلالهم منهم الشهير ليتراي (Littré) والعالم بالعاديَّات المصريَّة الشهير ماريت باشا.

فناشدتك الله يا صاحب الهلال لو صحّ قولك في تناقض الدين والعلم ألم ينبذ مثل هؤلاء المشاهير التعاليم الدينيَّة نبذ النواة. فان ثبتوا على دينهم او عادوا اليهِ بعد الضلال فما ذلك الّا لعلمهم العلم الحقّ بان المطابقة بين العلم والدين تامَّةٌ تستند الى اوثق الاركان

وعليهِ فلم يزل احبار الكنيسة الرومانية ينشرون في كلّ الاصقاع ألوية العلوم لا يثبط في ذلك مساعيهم شيء من الاتعاب او النفقات البالغة لانهم يعرفون انَّ الدين يستمدّ من العلم قوَّة وثباتًا بدلًا من ان تتقوَّض بذلك دعائمهُ كما يظنّ من يزعم انَّ بينهما تناقُضًا. وهاك الرهبانيَّة اليسوعية وهي اعظم نصير للدين فانها لا تزال رافعة أعلام العلوم جمعاء حتى انَّ عدد مصنَّفات ابنائها العلميَّة (ما خلا الدينيَّة) بلغت منذ نشأتها نحو ١٢٠٠٠٠. فلو كان بين العلم والدين التنافر الذي زعمهُ الهلال لاستحالت هذه الجمعيَّة الى جمعيَّة دينيَّة صرفة لا تعرف من العلم شيئًا او اصبحت جمعيَّة علميَّة محضة لا تُبالي بهِ وكلا الامرَين باطل

واذ قد تقرَّر لجناب منشئ الهلال انَّ المناقضة التي توهَّمها بين العلم والدين لا صحَّة لها كان يوسعنا ان نقف عند هذا الحدّ لكنَّنا نُلحق ببراهيننا السابقة تخطئة ما كتبهُ جنابهُ جملةً جملةً لئلا يظنّ ان في اعتراضاتهِ كبير امر

قال الهلال اناره الله « انَّ في كلّ دين من الاديان الالهيَّة (اليهوديَّة والنصرانيَّة والاسلام) تعاليم عديدة تناقض الحقائق الطبيعيَّة على خطّ مستقيم يكفينا منها المعجزات التي لا يخلو منها دين »

قبل جوابنا على هذا القول فليسمح لنا صاحب الهلال ان نسألهُ من ايّ دين هو لنعرف كيف نجيبهُ على قولهِ. وعهدنا بهِ انهُ نصراني من الروم الارثوذكس. ولكن أنى استجاز القول بان اليهودية والنصرانية والاسلام كلها اديان الهيَّة ؟ او كيف استطاع ان يقول عن ديانتهِ انها تعلّمهُ تعاليم عديدة تناقض الحقائق الطبيعية ؟ او يرضى احد من الروم الارثوذكس بمثل هذا الكلام ؟ مالي اقول الروم الارثوذكس هل يرتضي احد من النصارى او اليهود او المسلمين بمثل هذه الاقوال وليس بينهم واحد الّا ويعتقد صحَّة ديانتهِ وبطلان دين غيرهِ. ولو قال احد منهم قول صاحب الهلال لعُدَّ كافرًا في ملَّتهِ. اذ ليس بكفر اعظم من مساواة كل الاديان ونسبتها مع تناقضها في العقائد الى الحقّ

سبحانهُ وتعالى . فليراجع ما كتبهُ كمال الدين الافغاني في يقين كل ذي دين بانَّ امتهُ اشرف الامم وكلّ مخالف لهُ فعلى ضلال مبين . (رسالتهُ في ابطال مذهب الدهريين ترجمة الشيخ محمّد عبده ص ١٤ و ١٧) . ولعلَّ صاحب الهلال كتب ما كتب ليصيب قولهُ حظًّا عند قرَّائهِ غير النصارى ولكن ساء ما ظنَّ فانَّ كلامهُ المذكور يثير بالاحرى شحناء النصارى واليهود والمسلمين عليهِ اذ يتحقَّقون انهُ يعاملهم معاملةً واحدة من الصدق او الكذب اعني انَّهُ يسخر بهم جميعًا . كيف لا وقد زاد انَّ هذه الاديان « تعلّم تعاليم عديدة تناقض الحقائق الطبيعيَّة » فمن منهم يسلّم لهُ بذلك وترى علماء الاديان المذكورة قد ألّفوا التآليف الجمَّة ليبيّنوا انَّ تعاليمهم كلها صادقة تطابق العقل ليس فيها شيء يخالف الصواب

وزاد صاحب الهلال ضغثًا على أبالة لمَّا ذكر المعجزات في جملة الامور التي تناقض الحقائق العقليَّة . فناشدتك الله ايها الفيلسوف النحرير تُرى اي مناقضة تجدها بين المعجزات والحقائق العقلية ؟ وما هي هذه الحقائق العقلية التي تنقضها المعجزات ؟ . فان المعجزة هي حادث تعجز عنهُ القوى البشريَّة ولكن أليس فوق القوى البشريَّة قوَّة اخرى تستطيع عمل ما يقصر عنهُ البشر ؟ وماذا يمنع هذه القوَّة العليا ان تفعل في بعض الاحيان لاسباب صوابيَّة ما لا تستطيع قوى الطبيعة العاديَّة ؟ ألعلَّ صاحب الهلال يقول ان الله ليس مجرّ في إجراء هذه الاعمال الخارقة او انَّهُ ليس قادرًا عليها ؟ . لا نحالهُ يتجاسر على احد هذين القولين . وان زعم ان المعجزة تنفي الحقيقة العقليَّة سألناهُ ماذا ينتفي منها ؟ . أيبطل كون النار محرقةً اذا شاء الله عزَّ وجل ان يصدَّ فعلها عن بعض اوليائهِ كما فعل للفتيان الثلاثة في بابل ؟ أو يزعم احد ان البكم يتكلّمون والعميان ينظرون لان المسيح لذكرهِ السجود أعاد النطق لبعضٍ منهم وفتح أعين غيرهم ؟ فاي حقيقة عقليَّة تبطل في كلّ هذه الحوادث وغيرها ؟ . فسقطت اذًا حجة صاحب الهلال ليس فقط بازاء النصارى لكن ايضًا عند كلّ ذوي الاديان

ثمَّ وجَّه جنابهُ سهمًا طائشًا الى ديانتهِ النصرانيَّة فقال : « ناهيك عن كثير من الاعتقادات المشهورة عند بعض الطوائف كالاستحالة والتثليث ونحوهما فهذه كلها تخالف الحقائق العلمية » . فللّه درُّهُ من نصراني اديب يجهل ما يعرفهُ صغار مدارسنا وهو انَّ الاسرار كالاستحالة والتثليث لا تناقض الحقائق العقلية وان كانت تفوق عقلنا . امَّا

كونها لا تناقض الحقائق فظاهر لانَّ التناقض يصير بايجاب الشيء وسلبه كقولنا ان الله واحد بجوهره وانهُ ثلاثة بجوهره . امَّا ان نقول ان الله واحد بالذات والجوهر ومثلَّث بالاقانيم فاين التناقض (راجع مقالة بولس الراهب في المشرق ١ : ٨٤٠) ما لم يثبت صاحب الهلال ان تثليث الاقانيم يوجب تثليث الذات وهو امرٌ لم يقوَ عليهِ فلاسفة أوسع علماً واذكى عقلاً من جنابهِ لاسيما انَّ هذا السرَّ لم نخترعهُ نحن بل اخذناهُ من الوحي . فليبيِّن الكاتب الاديب انَّ هذا السرَّ لم يُوحِ بهِ ابن الله في انجيلهِ الطاهر ان امكنهُ او انهُ تعالى لا يستطيع ان يوحي الى البشر سرًّا يعلو إدراكهم (راجع مقالة الاب لويس معلوف اليسوعي عن الوحي في المشرق ٢ : ١٠٩ و ١٩٨)

وما قلناهُ في التثليث يصحُّ في الاستحالة التي ورد ذكرها صريحاً في خبر العشاء السرّيّ . وان اعترض صاحب الهلال انهُ لم يدرك مثل هذه الاسرار أفحمناهُ بقول الغزّالي لمن ينكر الاسرار لعدم فهمها :

ثَمَّ سرٌّ غامضٌ من دونهِ ضُربت بالسيف اعناقُ الفحولْ
انت لا تعرف اياك ولم تدرِ من انتَ ولا كيف الوصولْ
لا ولا تدري صفات ركّبت فيكَ حارت في خفاياها العقولْ
اين منك الروح في جوهرها هل تراها او ترى كيف تجولْ
انت اكل الخبز لا تعرفهُ كيف يجري فيك ام كيف يزولْ (١)

واضفنا الى ذلك قول احد كبار الفلاسفة : « ان كان عقلي يدرك كلَّ اسرار الله لم يَعد الله الهًا اذ يحيط علمي القصير بالذات الالهية غير المتناهية »

وعليهِ فلا معنى للنتيجة الاخيرة التي ختم بها الهلال كلامهُ حيث قال : « فالاولى بنا اعتبار كلٍّ من العلم والدين مستقلًا بنفسهِ نستعين بالواحد على الدنيا وبالآخر على الآخرة » كانَّ جنابهُ يقول : « ان النفس والجسد مبدأان مستقلان فهما اذًا متناقضان ولنفصلهما لنستعين بالواحد على المحسوسات وبالآخر على المعقولات » . فزهِّ زيهُ لعالم بارع يخبط بمثل هذا الخبط ويغوي الناس بمثل هذا اللَّغط

(١) اعلم انَّ استحالة الخبز والمآكل الى جسم الانسان من اسرار الطبيعة التي لم يُحسن العلماء شرحها الى يومنا هذا . أفيصعب على الله عزَّ وجلَّ ان يفعل بكلمة من فيهِ الالهي ما تصنعهُ فينا الطبيعة كل يوم فيغير ابن الله جوهر الخبز الى جوهر جسدهِ الطاهر مع بقاء اعراض الخبز ؟